محاضرة:
التاريخانية الجديدة

-تمهيد:

ننــاقش في هــذه المحاضــرة أهم القضــايا المعرفيــة والمنهجيــة المرتبطة بمجال التاريخانية الجديدة، إذ نركز على العلاقة الـتي تربـط بينهـا وبين نشـاط النقـد الثقـافي، وكيـف يمكن أن تكـون التاريخانيـة الجديدة مدخلا إجرائيا في القراءة الثقافية.

1-التاريخانية الجديدة: المفهوم والمسار

ترتبط نشأة التاريخانية الجديدة بظهور دعوة نقدية إلى تجاوز كل مقولاتها في التحليلين الثقافي والأدبي. و"يطلـق هـذا المصـطلح على مجموعات أو تجمعـات من النقـاد وأصـحاب النظريـات الـذين رفضـوا المناهج التزامنية أو الآنية sychoronic المستعملة في دراسة الثقافة والأدب، وهي المناهج التي ارتبطت بالبنيوية، ومن ثم حـاولوا التوصـل إلى إجابات مقنعة للعديد من الأسئلة والمشاكل الناشئة عن التضارب بين المناهج الجمالية والمناهج الثقافية والمناهج التاريخيـة المسـتعملة في دراسة شتى النصوص."[1]

وهنـاك فـرق بين التاريخانيـة الجديـدة والماديـة الثقافيـة، فـالأولى نسخة أمريكية شـماليّة والثانيـة نسـخة بريطانيـة، ممـا يجعلنـا نلاحـظ تــداخلا دقيقــا بين ثلاث مجــالات معرفيــة وهي التاريخانيــة الجديــدة والتحليل الثقافي والمادية الثقافية.

ويرجـع اجـتراح مفهـوم التاريخانيـة الجديـدة إلى الناقـد الأمـريكي والأستاذ بجامعة بريكلي،"ستيفن غرينبلات"(Stephen Greenblat) وهــو الــذي ســاهم بشــكل لافت في إرســاء أسســها النظريــة، حيث اشتغل بتطبيق آلياتها على نماذج من النصوص الأدبية الــتي تنتمي إلى عصــر النهضــة ممثلــة في مســرحيات شكســبير إذ "في النهايــة لابــدّ للتحليل الثقافي الكامـل أن يـذهب إلى مـا هـو أبعـد من النص ليحـدّد الروابط بين النص والقيّم من جهة، والمؤسسات والممارسات الأخرى في الثقافة من جهة أخرى"[2]

لهذا تشترط التاريخانيّة الجديـدة توظيـف الناقـد الثقـافي على القراءة الفاحصة، وهي قراءة يسعى إلى كشف "القيم الثقافيــة الــتي امتصها النص الأدبي؛ لأن ذلك النص على عكس النصوص الأخرى قادر على أن يتضمن بداخله السياق الذي تم إنتاجه من خلاله."[3]

تحـاول التاريخانيــة الجديــدة أمـام هـذه المـيزة الكشـف عن جملـة الأنساق الثقافية المبثوثة داخل النصوص الأدبية وما مـدى تعالقهـا مـع لحظات تاريخية بعينها، مع ضرورة الربط بينهـا وبين خطابـات أفرزتهـا فئات اجتماعية مختلفة تجمـع بين الهـوامش والطبقـات الـدنيا، وأيضـا

كشــف الصــراع بينهــا وبين المؤسســات السياســية، والممارســات الخطابية الممثلة للمعرفـة والقـوة، وهـذا مـا يجعـل المـدقق في هـذا التوجه النقدي يجد أن لأراء ميشال فوكو أثر مباشـر في صـياغة كثـير من مقولاتهـا النظريـة. خاصـة مـا ارتبـط بمقـولات حفريـات المعرفـة والعلاقة بينها وبين السلطة، وقد عرضنا ذلك في صـفحات سـابقة من هذا الفصل.

ويعـبر الناقـد الأمـريكي "لـوي منـتروز (Louis Montrose) عنهـا بقوله: "هي ذلك العمل الأكاديمي الحصيف الـذي يميـل إلى أن يكـون عملية تحرّ غربية، ولهذا يتعامل مع النصوص باعتبارهـا أصـفارًا كبـيرة، فيحاول تثبيت معنى للشخصيات والأحداث المتخليـة في إشـاراتها إلى أحداث وأشخاص تاريخية بعينهم"[4]

تنطلق التاريخانية الجديدة في ضوء ذلـك من مقـولات تتقـاطع مـع مقــولات النقــد الثقــافي، ومقــولات الدراســات الثقافيــة، لكن هــذا لا يمنحها الحق في أن تكون هي نفسها جميعـا، رغم مـا يربطهـا بخيـوط رفيعة ودقيقة جدا.كما أن التاريخانية الجديدة أسـبق وجـودا من النقـد الثقافي وهذا ما يجعلها تعد من روافـده المعرفيـة وكـذا إحـدى وجـوه مقاربته.

وفي هـذا السـياق إن الأقـرب إلى التاريخانيـة الجديـدة هـو مفهـوم التحليل الثقافي وليس مفهوم النقد الثقافي. وكمـا هـو متعـارف عليـه فليس التحليل الثقافي هو النقد الثقافي، حيث يحيل الأول إلى دراسة للعناصر النصية دون إلغاء الجانب الجمالي بل عدّ هذا الأخير جــزء من الإطار التاريخي والثقافي في النص الأدبي المقروء. كما أنه هو الوجـه العملي والتطبيقي للتاريخانية الجديدة.

حين نعود إلى "ستيفن غريتبلات" نجده أثناء قراءة النصوص الأدبيـة الـتي تنتمي إلى القـرنين السـادس عشـر والسـابع عشـر قـد حـاول "الإتكـاء على القـراءة الفاحصـة لاسـتعادة القيم الـتي امتصـها النص الأدبي (فاعلية الامتصاص)، لأنـه قـادر على تضـمين السـياق الـذي تم إنتاجـه من خلالـه. وسـيتمكن نتيجـة لـذلك من تكـوين صـور للثقافـة بوصــفها تشــكيلا معقــدا أو شــبكة من المفاوضــات لتبــادل الســلع والأفكار."[5]

ولقد قيل بوجود فروق بين التاريخانية الجديدة والنقد التاريخي الـذي يسعى إلى قراءة التاريخ وإعادة بنائه داخل النص الأدبي، مما يعني أن التاريخ شـيء والأدب شـيء آخـر، أمـا التاريخانيـة الجديـدة فـترى أن التاريخ والنص ليسا كيانين منفصلين بل كيان واحد."[6]

تسعى العلاقة بين "النص والتاريخ" -من منظور التاريخانية الجديـدة- تجاوز المفهوم التقليـدي للتـاريخ، حيث لم يعـد خاضـعا لمبـدأ الصـدق والكذب، لهذا فإن التاريخ بمثابة لحظات زمنيّة متشّكلة نصيّا. وهـو مـا

جعل التاريخانية الجديدة تعمل على كشف العلاقة بين النص الأدبي والسياق الثقافي الذي أنتجه، مما جعل "منتروز" يصر على "أن الهدف الأول للتاريخانية الجديدة هو إعادة تشكيل العلاقة بين النصوص والنظام الثقافي الذي أنتجها، ويشير أن الخطوة في مثل هذا التعاطي أنه لابد للنقاد من تحديد إشكالية الفهم الشكلاني للأدب، أو يرفضون كونه نظاما جماليا مستقلا يسمو بالحاجات والاهتمامات، ويرفضون أيضا فكرة الانعكاس التي تنص على أن الكتابة تعكس ببساطة إيديولوجيا مستقرة ومترابطة يصادق عليها أفراد الشعب كافة، بعد التخلي عن هذه النماذج فإن التاريخاني الجديد كما يناقش منتروز، يجب عليه أن يوضح كيف أن النصوص لا تمثل أشكال المعرفة والمرجعية المبنية ثقافيا فحسب، بل إنما في الحقيقة تحيي في القراء أو تعيد إنتاج الممارسات الحقيقية والشفرات التي تتجسد في تلك النصوص."[7]

يرى أصحاب التاريخانية الجديدة في الخطابات الأدبية والخطابات غير الأدبية أنها تختزن خلفها صورا وتمثيلات للصراعات بين القوى المختلفة، سواء تحلف ذلك بصراع قوى السلطة والمثقف والأنظمة الاجتماعية وفي المؤسسات الأخرى وهذا ما يتعين إلى وجوب العودة إلى كتابات "فوكو" حول الجنون والسجون والجنس والعيادة وغيرها في ضوء مقولته الشهيرة أنه لا وجود لمعرفة حقيقية للعالم إلا ضمن التاريخ، أي تاريخ العلاقات بين القوى المختلفة المتمثلة حسبه في المعرفة والسلطة. ليدعوا بذلك التاريخانيون الجدد إلى "تناول أعمال شكسبير من مدخل يولي العناية تاريخية كبيرة. لمفاهيم معاصرة مثل: النظام والسلطة والملكية والطبيعة والزواج والأسرة والعدالة والقانون والربا والمعتقدات الدينية والعمل."[8]

ومن القضايا الأساسية أثناء الممارسة الإجرائية للتاريخانية الجديدة هو استغلال مقولات نقدية ونظرية أدبية مختلفة موزعة بين مقولات التفكيكية والتأويلية. بالإضافة إلى أن هذا النشاط ينظر إلى "الفترات التاريخية على أنها صراعات قوى تترك أثرها على كل الإنتاج الفني في عصرها، [حيث] يوجد هناك صدى لنظرية الانعكاس الماركسية."[9]

ويبدو أن التاريخانية الجديدة قد صارت ملاذا لكثير من الدارسين العرب المعاصرين الذين يشتغلون على القراءة الثقافية للنصوص الأدبية العربية المختلفة، حيث يعتقدون بضرورة الاعتماد على مدخل التاريخانية الجديدة كمقاربة ثقافية من المقاربات التي يمكن أن تدرج تحت مظلة النقد الثقافي، مع مسلمة غياب المجال الإجرائي له، حيث قيل أن الجمع بين المجالين قد يمنح ممارسة نقدية ثقافية تسمى: **جماليات النقد الثقافي.**

هوامش المحاضرة:

1- محمد عناني: المصطلحات الأدبية الحديثة، شركة لونجمان للنشـر، القاهرة، ط 1، دت، ص 60.

2- سعد البازعي وميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقـافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط 4، 2007، ص 80.

3- المرجع نفسه، ص 80.

4-عبـد العزيـز حمـودة: الخـروج من التيـه، المجلس الوطـني للثقافـة والفنون والآداب، الكويت، ط 1، 2003، ص 249.

5- بشرى موسى صالح: بيويطيقـا الثقافـة، نحـو نظريـة شـعرية في النقـد الثقـافي، دار الشـؤون الثقافيـة العامـة، بغـداد، العـراق، ط 1، 2012، ص 26.

6- بشرى صالح موسى: بيوطيقا الثقافة، ص 249.

7- في الحداثة وما بعد الحداثة، دراسات وتعريفـات، مؤلـف جمـاعي، تر: سهيل نجم، أزمنة للنشر، عمان، ط 1، 2009، ص 135.

8- موسوعة كامبردج: القرن العشرون، ص 103.

9- ستوارت سيم وبروين فان لوون: النظرية الثقافية، ص 142.